المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الحاضط - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الأول - ١٤٠٠ - ١٩٨٠

١

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء الله الحسنى

WWW.ATTAWEEL.COM

المورد المجلد التاسع ربيع ١٩٨٠ العدد الاول

دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

بين منطق ارسطو والنحو العربي

في تقسيم الكلام

بقلم الدكتور

محمد خير الحلواني

كلية الآداب ـ اللاذقية

في اذهان كثير من الباحثين في النحو العربي اليوم ان المنطق الصوري امد علماء النحو العرب بكثير من اساليب البحث ؛ ووضع بين ايديهم تجربة غنية في الدرس اللغوي ، افادوا منها افادة مباشرة في جانب ، وغير مباشرة في جانب آخر ، وقد اطمأنوا في كثير من الجزم الى ان ما انتهجه نحاة العربية من استخدام القياس والعلة ، وما اصطنعوه في تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف، انما يرجع في اصله الى المنطق الصوري ، او الى الثقافة اليونانية عامة .

وقد بدات هذه النزعة في دراسة المستشرق الالماني « مركس Merx » في نهايات القرن التاسع عشر ، ذلك انه ذكر في كتابه « تاريخ صناعة النحو السرياني » ان النحو العربي اقتبس من المنطق اليوناني مجموعة من المصطلحات ، وزعم ان مفهوم سيبويه للحرف يشبه ما جاء في كلام ارسطو عن الرباط Syndesmos .

ثم توالى بعده المستشرقون ، فكانوا بين مؤيد له ، وزار عليه ، وانتقلت هذه الدراسات من اوربا الى الوطن العربي ، ووقف المؤرخون من مسالة التاثر مواقف متغايرة بين متعصب للاقتباس ، ومنكر له ، ومستدل يرى في ذلك رايا وسطا .

وما بي حاجة الى ذكر المعتدلين والمنكرين ، لاني لا اتوجه اليهم بهذا البحث ولا اناقش آراءهم ، بل سأعرض آراء القائلين بالاقتباس ، واوازن بين ما ذهبوا اليه والوقائع التاريخية التي وقفت عليها .

وقبل ان ادخل في التفصيلات احب ان اذكر ان القائلين باقتباس النحو العربي من امم اخرى ليس لهم في المسألة راي واحد ، بل انهم ليذهبون في ظنونهم مذاهب شتى ، ويستدلون بادلة هي الى الظن اقرب منها الى بحث علمي يستند الى ادلة وبراهين صحيحة ، ففريق منهم يزعم ان التاثر اللغوي كان بمنطق اليونان ؛ وفريق آخر يزعم انه كان بنحوهم ، لا بمنطقهم ؛ ويرى فريق ثالث ان التاثر لم يكن باليونان ؛ لان طبيعة اللغة العربية تختلف عن طبيعة لغتهم ؛ ويجزم بان التاثر كان بلغة السريان ، لانها لغة سامية قريبة من اللغة العربية في خصائصها ، ونظمها ؛ وياتي فريق آخر ليجزم بان التاثر كان بالدراسات اللغوية للهنود ، ولا يمكن ان تكون بالدراسات الاغريقية او السريانية .

وليس هذا فحسب بل ان الفريق الذي يزعم ان التاثر كان باليونان لم يتفق اصحابه على تحديد المصدر نفسه ؛ اذ راى بعضهم انه ارسطو ، وراى آخرون انه افلاطون ، وذهب فريق ثالث الى انه فلسفة الرواقيين ، وقدم كل منهم ادلة لا يصح منها إلا ادلة الرفض .

ولا شك ان في هذا الاضطراب دليلا على غموض الرؤية عند هؤلاء الباحثين ، بل اكاد اجزم بان كثيرا منهم اطلقوا احكامهم من دون ان يرجعوا

الى المصادر الصحيحة التي تصل بهم الى الحقيقة .

ولقد آثرت في هذا البحث ان اجزىء الدراسة ؛ ففي التجزيء ما يتيح للباحث ان يضع يده على تفصيلات ودقائق ، ذات اهمية بالغة ، في الدلالة على اثبات الشيء او نفيه ، وآثرت ايضا ان يكون منطلق الدراسة قضية تقسيم الكلام في النحو العربي وفي المنطق الارسطي خاصة

وسأعرض عليك آراء اربعة من هؤلاء الباحثين ؛ ذهبوا الى ان العرب اقتبسوا تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف من كتب ارسطو مباشرة او بالوساطة ؛ هم المستشرق « مركس » والدكتور جواد علي ، والاب اسحاق ساكا ، والدكتور ابراهيم مدكور .

اما الاول فقد زعم ان مفهوم الحرف عند سيبويه مقتبس من مفهوم الرباط Syndesmos عند ارسطو ، فكما ان ارسطو يرى « الرباط » ليس بذي دلالة ؛ كذلك يرى سيبويه ان الحرف لا يدل على معنى(١) .

وقال الدكتور جواد علي : « وانا لا استبعد احتمال وقوف علي بن ابي طالب وابي الاسود الدؤلي على تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف ، وقفا عليه باتصالهم بالحيرة ، او بعلماء من اهل العراق كانوا على علم بالنحو وعلوم اللغة في ذلك العهد ، وقد كان ذلك في الاسس والمبادىء »(٢) .

واما الاب اسحاق ساكا فقد ذكر ان « نظام تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف في اللغة العربية هو نفس التقسيم الكلامي في اللغة اليونانية ، وهذا التقسيم هو يوناني قائم على المنطق »(٣) .

واما الدكتور ابراهيم فقد تناول الموضوع بمزيد من التفصيل ، واورد عليه من الادلة ما لم اجد له نظيرا عند باحث عربي آخر ، قال : «ونود ان نلقي نظرة على بعض هذه القواعد لنتبين ما يمكن ان يلاحظ من شبه بينها وبين اول ما عرف من قواعد النحو العربي ؛ ورائدنا في هذا (الارجانون) من جانب ، و (كتاب سيبويه) من جانب آخر ؛ ففي مقدمة كتاب (العبارة) يقسم ارسطو الكلمة الى اسم وفعل . معرفا الاول بانه ما دل على معنى وليس الزمن جزءا منه ، ومعرفا الثاني بانه ما دل على معنى وعلى زمن ، ثم يشير في كتاب منطقي آخر ـ هو الطوبيقا او الجدل ـ الى قسم ثالث من اقسام الكلمة يسميه الاداة . وهنا ننتقل الى كتاب سيبويه فنجده يبدا بتقسيم الكلم الى اسم وفعل وحرف ، ويعرفها الواحد تلو الاخر تعريفا يحاكي من بعض النواحي التعريف الارسطي ؛ ومن الغريب ان ما يسميه حرفا يسميه الكوفيون اداة ، وكانهم شاؤوا ان يحتفظوا بالمصطلحات المنطقية احتفاظا تاما »(٤) .

تلك هي آراء الباحثين في اقتباس التقسيم الثلاثي للكلمة العربية ، ويتضح لنا منها ما يلي :

١ ـ المستشرق مركس اكتفى بالحديث عن الحرف دون غيره من اجزاء الكلام .

٢ ـ الدكتور جواد علي لم يجزم ، بل استخدم عبارة ظنية ، قال : (وانا لا استبعد) .. **ولم يجعل التاثر بارسطو مباشرة .**

٣ ـ الاب اسحاق ساكا لجأ الى التعميم ، ولم يذكر شيئا واحدا يمكن ان يسمى دليلا على ما ذهب اليه .

٤ ـ الدكتور مدكور فصل ما لم يفصله غيره ، ولكنه لم يذكر لنا ما قاله ارسطو عن (الاداة) في كتابه : طوبيقا او الجدل . وزعم ان مفهوم سيبويه وتعريفه لها من بعض النواحي ، وزعم ان في الامر محاكاة .

فما وجه الحقيقة في هذه الاراء ؟

اول ما يجب ان نفهمه في توضيح ذلك هو ان دراسة ارسطو لبعض ظواهر اللغة لم تكن ذات علاقة بالبحوث اللغوية الخالصة ، بل كانت جزءا من المنطق والفلسفة ؛ ذلك انه تحدث عن اقسام الكلام لانها ترتبط عنده بالقضية ؛ فكل « قضية » تتكون من اسم وفعل ورباط ؛ كما ترتبط اللغة عنده بالمنطق ؛ لانها وسيلة تعبيرية لابد منها في (التصور) و (القياس) ومن اجل ذلك كانت دراسة اللغة عند ارسطو وسيلة لغاية فلسفية ؛

---

(١) انظر بحث الدكتور عبدالرحمن الحاج صالح : النحو العربي ومنطق ارسطو ٧٧ ، وانظر مجلة مجمع اللغة العربية في الاردن . العدد الاول ١٩٧٨ . بحث للدكتور جواد تروبو بعنوان : نشاة النحو العربي على ضوء كتاب سيبويه .

(٢) المفصل في تاريخ العرب ٤٩/٩ .

(٣) انظر : مجلة العربي الكويتية . عدد ١٠٦ ،صفحة ٥١.

(٤) انظر كتابه في اللغة والادب ص ٤٤ (القرا ٢٢٧) ١٩٧١

هي دراسة الفكر الانساني . لان في دراستها تحديدا لمفهومات المنطقية ، ومثل هذه الدراسة تختلف عن دراسة علماء اللغة ، التي تقوم على ملاحظة العبارة في ظواهرها الشكلية والمعنوية ، انهم يدرسون اللغة للغة ، اما هو فيدرس اللغة للفكر .

ومن اجل ذلك نراه يدرس اللغة من حيث الدلالة لا من حيث الشكل ، وهذا هو منهاجه في كتبه الاربعة : المقولات ، والعبارة ، والشعر ، والخطابة .

وقد استعمل في هذه الدراسة مصطلحات فلسفية مجردة ، فالكلمات عنده تدل على جوهر ، او كم ، او كيف ، او اضافة ، او موضوع ، او يفعل ، او ينفعل ، او . . .

وقد قسم الكلمات ـ كما ترى ـ بحسب مدلولها الذاتي ، ثم مضى يتحدث عنها ويربط بين طريقة استخدامها ومدلولها ، اي بين موقعها الوظيفي في التركيب ، ومدلولها المعجمي ، فما دل على جوهر مثلا ، له في الكلام المركب وقع خاص ، يقول : « فاما الجوهر الموصوف بانه اول بالتحقيق والتقديم والتفضيل فهو الذي لا يقال على موضوع ما ، ولا هو في موضوع ما ، ومثال ذلك : انسان ما ، وفرس ما » (٥) .

اما تقسيم ارسطو للكلام فلم يأت في كتابيه : العبارة والطوبيقا فحسب ، بل جاء ايضا في كتابيه الاخرين : الشعر والخطابة ، وقد اعتمد في تقسيمه هذا على خصائص اللغة اليونانية ، وانها لتختلف عن اللغة العربية اختلافا غير يسير ، ومن هنا جاء مفهوم الاسم والفعل والرباط في كتبه يختلف عما يقابله في النحو العربي .

وما جاء في كتاب (الشعر) عن هذه الاقسام يعد اوفى مما جاء عنها في الكتب الاخرى مجتمعة. فقد قسم الكلام الى سبعة اقسام لا ثلاثة ـ كما زعم القائلون بالاقتباس ـ يقول : « هذه هي اجزاء الكلام الداخلة في العبارة بوجه عام : الحرف ، والمقطع ، والرباط ، والاسم والفعل ، والتصريف ، والكلام »(٦) ، اما في كتابه العبارة فلم يذكر غير الاسم والفعل والمقطع والكلام(٧) ، وقد تجاوز الاداة فلم يذكرها لانه ـ كما يرى الفارابي ـ يحتاج في هذا الكتاب الى الحديث عن الاسم والفعل دون الاداة ، وقد ترك الحديث عنها الى كتابي الشعر والخطابة .

ومعظم هذه الاجزاء لا مقابل لها في التقسيم العربي . فالحرف عند ارسطو هو الصوت الذي لا ينقسم ، ويعني به الحرف الواحد من احرف الهجاء ، ويريد بالمقطع ما ركب من حرفين هجائيين اولهما صامت ، والثاني صائت ، ويريد بالتصريف الدلالة على المفرد او الجمع ، او على السؤال والطلب ، وما يطرأ على الكلمة من تغييرات لاداء هذه المعاني . اما الكلام فهو عنده صوت مركب دال ، بعض اجزائه يدل على انفراده »(٨) .

وهذه الاقسام الاربعة لا اثر لها في التقسيم العربي للكلمة . فلم يبق الا حديث ارسطو عن الاسم ، والفعل ، والرباط ، فهل لها صلة بالتقسيم العربي ؟ وهل يصح راي الباحثين الذين ذكرنا ؟

الحق ان ارسطو كان يصدر عن طبيعة اللغة اليونانية التي يكثر فيها (التركيب) اي صياغة الاسم او الفعل من كلمتين مستقلتين في الاصل ، ولذلك جاء مفهومهما في كتبه يختلف عن المفهوم العربي في عصر سيبويه ، وفي العصور التي تلته .

أ ـ الاسم عند ارسطو وسيبويه :

ولنعرض مفهوم ارسطو اولا ، ثم نعرض المفهوم العربي ثانيا ، لتسهل الموازنة بين الطرفين .

يقول في كتاب « العبارة » في الحديث عن الاسم : « هو لفظة دالة بتواطؤ ، مجردة من الزمان وليس واحد من اجزائها دالا على انفراده ، وذلك ان (قالبلس) اذا انفرد منه (إبلس) لم يدل بانفراده على شيء ، كما يدل في قولك : قالوس ابس . اي فرس قاره . وليست الحال ايضا في الاسماء المركبة كالحال في الاسماء البسيطة ، وذلك ان جزءا من الاسم البسيط ليس يدل على شيء اصلا ، واما الاسم المركب فمن شأن الجزء ان يدل على شيء ، لكن ليس على انفراد .

فاما قولنا (بتواطؤ) فمن قبل انه ليس من الاسماء اسم بالطبع الا اذا صار دليلا ، فان الاصوات ايضا التي لا تكتب نجدها تدل على شيء ، مثل اصوات البهائم ، الا انه ليس شيء منها اسما .

واما قولنا : لا انسان . فليس باسم ، ولا وضع له ايضا اسم ينبغي ان يسمى به ، وذلك انه

---

(٥) انظر : كتاب المقولات : ترجمة اسحاق بن حنين ص:٦.
(٦) ترجمة الدكتور شكري عياد . ص : ١٠٨ ، (القاهرة ١٣٨٦ ـ ١٩٦٧) .
(٧) ترجمة الفارابي : ص : ٢٩ ـ ٤١ (بيروت : ١٩٦٠).
(٨) الشعر : ١٠٨ ـ ١١٦ .

ليس بقول ؛ و (لا) سالبة ، فليكن اسما غير محصل »(٩) .

واضاف في كتاب الشعر شيئا يحسن ذكره ، قال : « وانواع الاسم هي:الاسم البسيط ؛ واعني بالبسيط ما لم يكن مركبا من اجزاء دالة ، مثل : ارض ؛ والاسم المضاعف ، ومنه ما يتركب من جزء دال وجزء غير دال ؛ كما ان منه ما يتركب من جزئين دالين ، وقد يكون الاسم ثلاثي الاجزاء او رباعي الاجزاء او كثير الاجزاء »(١٠) .

والواضح من حديثه عن الاسم انه يعنى بشيئين :

اولهما الدلالة .

وثانيهما النوع .

فللاسم دلالة ما ، ولكنه يقرنها الى فكرة فلسفية هي فكرة التواطؤ ، او التواضع ؛ ويفسرها بان الاسم ليس اسما بطبعه ؛ بل بتعارف الناس وتواطئهم ، كما نراه يلح ـ الى جانب هذا ـ على ان جزء الاسم لا يدل على شيء .

وفي حديثه عن النوع نراه يقسمه الى مركب وغير مركب ؛ ومحصل وغير محصل ؛ والاسم المركب لا وجود له في التقسيم العربي . اما غير المحصل مثل : لا انسان . فلا وجود له في اللغة العربية اصلا ؛ وقد ذكر هذا قديما ابن سينا ؛ ووضح ان الاسماء غير المحصلة موجودة في الفارسية واليونانية . وليس لها وجود في اللغة العربية(١١) .

ذاك هو مفهوم ارسطو للاسم ؛ فهل يشبه حقا ما جاء في كتاب سيبويه كما زعم الدكتور مدكور ؟

ان سيبويه لم يقل شيئا عن الاسم ، فهو لم يعرّفه ؛ ولم يصفه؛ ولم يتحدث عن انواعه ، وكل ما قاله لا يزيد على اربع كلمات ، هي : « فالاسم : رجل وفرس وحائط »(١٢) .

أليس غريبا ان يقول الدكتور مدكور : ان سيبويه عرف اجزاء الكلام الواحد تلو الاخر تعريفا يشبه من بعض جوانبه تعريف ارسطو لها في كتاب العبارة ؟

(٩) شرح كتاب العبارة . للفارابي ص : ٢٩ ـ ٣٢ وانظر ترجمة اسحاق بن حنين : ص ٦٠ .
(١٠) كتاب الشعر : ١١٤ .
(١١) انظر : منهج التفكير عند مفكري الاسلام : ٢٤ .
(١٢) كتاب سيبويه (هارون) : ١٢/١ .

وإذا تجاوزنا المرحلة الزمنية التي حددها هؤلاء الباحثون ؛ وهي مرحلة نشأة النحو حتى عصر كتاب سيبويه ؛ رأينا قلة من النحاة المتأخرين في القرن الثالث للهجرة يقفون على منطق ارسطو ، ويحدون الاسم حدا يصدرون فيه عن مفهومات فلسفية ؛ وقد نال منهم ومن حدهم أبو القاسم الزجاجي ، فقال في كتابه (الايضاح)(١٢) : «الاسم في كلام العرب ما كان فاعلا او مفعولا او واقعا في حيز الفاعل والمفعول به. هذا الحد داخل في مقاييس النحو واوضاعه . وليس يخرج عنه البتة ؛ ولا يدخل فيه ما ليس باسم ، وانما قلنا في كلام العرب لانا له نقصد . وعليه نتكلم ، ولان المنطقيين وبعض النحويين قد حدوه حدا خارجا عن اوضاع النحو ، فقالوا : الاسم صوت موضوع دال باتفاق على معنى غير مقرون بزمان . وليس هذا من الفاظ النحويين ولا اوضاعهم ، وانما هو من كلام المنطقيين ومذهبهم ، لان غرضهم غير غرضنا ، ومغزاهم غير مغزانا ، وهو عندنا على اوضاع النحو غير صحيح ؛ لانه يلزم منه ان يكون كثير من الحروف اسماء ، لان من الحروف ما يدل على معنى دلالة غير مقرونة بزمان، نحو : ان ، ولكن ، وماشبه ذلك » .

وقال في الموضع نفسه : « وقال آخرون : الاسم صوت موضوع دال باتفاق على معنى بلا زمان ولا يدل جزؤه على شيء من معناه . وهذا ايضا من كلام القوم ، وان كانت فيه هذه الزيادة اليسيرة ، وقد مضى القول فيه » .

ففي هذا النص ما يجزم بان جزءا يسيرا من مفهوم الاسم الارسطي قد وصل الى البيئة النحوية عن طريق المناطقة في القرن الثالث للهجرة ، وقد اختلفت منه مواقف النحويين ؛ فبعضهم ـ وهم الجمهور ـ لم يسمعوا به او يطلعوا عليه ؛ وقد اغفلته كتبهم فلم تأت منه على ذكر ، وبعضهم ـ وهم قلة ـ وقفوا عليه ولكنهم انكروه ، وعدوه خروجا على اعراف النحو واوضاعه ؛ كما رأينا في كلام الزجاجي . وفريق ثالث اخذوا بهذا الجزء اليسير من مفهوم ارسطو للاسم ، وساقوه حدا له؛ ولا شك ان هؤلاء كانوا اقل شهرة من غيرهم ، لاننا لم نجد في كتاب نحوي يعتد به هذا المفهوم ، ولولا ان الزجاجي نقله في كتاب لما سمع به احد ، لهوانه وهوان شهرته .

وليس هذا فحسب ؛ بل هناك ما هو اكثر

(١٢) كتاب : الايضاح في علل النحو : ٤٨ و ٤٩ .

دلالة ، ذلك ان اقتباس بعض النحاة من مفهوم الاسم الارسطي في القرون المتأخرة لايعني ان العرب اقتبسوا فكرة التقسيم في القرن الاول ، فمنذ ايام الخشرمي وابي عمرو بن العلاء كان هناك تمييز واضح للاسم من الحرف ، فقد ذكر سيبويه في كتابه(١٤) ان (كم) عند ابي عمرو اسم لا حرف ، لانها يسند اليها ، وذلك يعني ان هناك معيارا وظيفيا عند ابي عمرو يفرق به بين الاسم والحرف ، وتلك وثيقة مادية تكشف عن حقيقة ما الى ردها سجل . هي ان التمييز بين الاسم والفعل يرجع الى بداية القرن الثاني للهجرة ، اي قبل كتاب سيبويه بنصف قرن او يزيد .

ب ـ مفهوم الفعل عند ارسطو وسيبويه :

ذاك هو اختلاف مفهوم الاسم بين سيبويه وارسطو . فاين يقع مفهوم الفعل الارسطي من المفهوم العربي ؟

تحدث ارسطو عن الفعل ، او الكلمة ـ كما يسميه ـ في كتابيه الشعر والعبارة حديثا طويلا ، فذكر ان الفعل عنده ما دل على الزمان الحاضر ، فاذا دل على الماضي او المستقبل لم يكن عنده فعلا على الاطلاق ، قال في كتاب (العبارة) : « وعلى هذا المثال (صحّ) الذي يدل على الزمان الماضي ، او (يصح) الذي يدل على الزمان المستانف ليس بكلمة . لكن تصريف من تصاريف الكلمة ، والفرق بين هذين وبين الكلمة ان الكلمة تدل على الزمان الحاضر ، وهذين وما اشبههما يدل على الزمان الذي حوله »(١٥) . وقد ذكر الفارابي في شرحه ان ارسطو يسمي « الكلمة على الاطلاق ما دلت على الزمن الحاضر ، وما دل على الزمان الماضي والمستقبل فليس يسميه كلمة على الاطلاق ، بل كلمة منثرة »(١٦) .

ويرى ايضا أن الفعل من حيث الدلالة ليس بجوهر ، بل هو عرض « يقال على الموضوع ، او يقال في الموضوع » . ويرتبط هذا المفهوم بطبيعة اللغة اليونانية ، ذلك انه يقصد بقوله (ما يقال في الموضوع) ان الاسم ـ كما يرى الفارابي ـ اذا اخبر عنه بالاعراض الزائلة بوساطة الاسم المشتق كان لابد من استعمال فعل الكون ليكون رابطا بين الموضوع والعرض ، وقد مثل الفارابي لهذا بقوله : « الانسان يوجد عادلا » . فالفعل (يوجد) يربط في اللغة اليونانية بين الانسان وكونه عادلا ، واليك كلام الفارابي نفسه : « فقوله : ما يقال في الموضوع يعني به الاعراض من حيث هي اعراض في الشيء الموضوع لها ، فان هذه اذا دل عليها باسماء مشتقة ارتبطت بموضوعاتها بالكلم الوجودية ، كقولنا : الانسان يوجد عادلا » .

اما اذا كان الفعل نفسه هو المحمول ، اي الخبر ، فحينئذ لا يحتاج في اللغة اليونانية الى كلمة وجودية ، اي فعل كون ، لان في الفعل معنى الوجود ، وهذا تفسير قول الفارابي : « واذا دل عليها بالكلم ارتبطت بانفسها ، لاجل ما فيها من قوة الكلم الوجودية كقولنا : الانسان يعدل » .

ويتضح ارتباط مفهوم ارسطو باللغة اليونانية وبالفلسفة بقول الفارابي ايضا : « وقوله : ما يقال على الموضوع ، يعني به الجواهر الكلية ، وكليات الاعراض ، اذا حملت على انواعها ان كانت اجناسا وعلى اشخاصها ان كانت انواعا . فان هذه انما ترتبط بموضوعاتها بالكلم الوجودية ، لا بان تجعل من اسمائها كلم ، فانا لا نقول : ان البياض يتكون او قد تكوّن ، بل نقول : ان البياض يوجد لونا ... »(١٧) .

وثمة امر آخر هو ان ارسطو يقسم الفعل الى قسمين : كلمة محصلة ، واخرى غير محصلة ، يقول : « واما قولنا : لا صح ، او قولنا : لا مرض ، فليست اسميه كلمة ، فانه وان كان يدل مع ما يدل عليه على زمان ، وكان ايضا يقال على شيء ، الا انه ليس لهذا الصنف اسم موضوع ، فليسم كلمة غير محصلة » . ويرى الفارابي في شرحه ان « هذا الصنف من الكلمة غير موجود اصلا في اللسان العربي »(١٨) .

وفي كتاب الشفاء لابن سينا نجد شيئا آخر من مفهوم الفعل الارسطي ، يقول : « ليس من المحتم ان يكون كل فعل عند النحاة كلمة عند المناطقة ، لان المضارع غير الغائب : اي المتكلم والمخاطب فعل عند النحاة ، ولا يعتبر كلمة عند المناطقة ، لان المضارع غير الغائب مركب ، والمركب غير كلمة »(١٩) .

---

(١٤) انظر كتاب سيبويه (هارون) ١٦١/٢ .
(١٥) انظر كتاب الشعر : ١١٢ ، وكتاب العبارة : ٢٢-٢٣ .
(١٦) كتاب العبارة . بشرح الفارابي : ٣٦ .
(١٧) انظر : شرح كتاب العبارة : ٣٦ .
(١٨) انظر : شرح كتاب العبارة : ٣٣ ـ ٤٣ .
(١٩) الشفاء : لوحة ٢٧ ، نسخة مصورة في جامعة القاهرة. عن : مناهج المفكرين ٣٤ .

في هذا العرض الموجز نجد في مفهوم ارسطو للفعل ما يلي :

١ ــ ان الفعل الذي يدل على الزمن الحاضر هو الفعل المطلق . اما الذي يدل على الماضي ؛ أو على المستقبل ، فليس كذلك ، بل فعل مصرف ، وهذا يرتبط بطبيعة اللغة اليونانية التي يشكل فيها الفعل الحاضر مادة الفعل ؛ كما في اللغة الانكليزية ؛ على حين نجد الفعل الماضي العربي هو مادة الفعل .

٢ ــ وكذلك لا يكون فعلا الا اذا كان بصيغة الغائب ؛ اما ما كان للمتكلم او للمخاطب فلا يكون فعلا ، بل هو عنده كلام مركب .

٣ ــ ان الفعل يقال على شيء ، اي انه في التعبير العربي سند ، غير ان ارسطو يزيد في هذا ، لان طبيعة اللغة اليونانية تحمله على ذلك ، لانها تستخدم نوعين من الافعال : نوعا يربط بين الموضوع والمحمول ؛ هو في المفهوم الحديث فعل مساعد ، ونوعا آخر غير مساعد يتضمن معنى فعل الكون الى جانب معناه الخاص .

وواضح من هذا كله ان مفهوم الفعل عند ارسطو يصدر عن طبيعة اللغة اليونانية وعن معطيات المنطق والفلسفة ؛ فلنعرض بجانبه مفهوم سيبويه لنرى ايصح زعم الدكتور مذكور في ان هناك جوانب من التشابه الى درجة المحاكاة بين المفهومين .

يقول سيبويه : « واما الفعل فامثلة اخذت من لفظ احداث الاسماء ، وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع ؛ فاما بناء ما مضى : فذهب ، وسمع ومكث وحمد ، واما بناء ما لم يقع فانه قولك آمرا : اذهب ، واقتل ، واضرب ، ومخبرا : يقتل ، ويذهب ، ويضرب ، ويقتل ويضرب ؛ وكذلك بناء ما لم ينقطع وهو كائن اذا اخبرت ، فهذه الامثلة التي اخذت من لفظ احداث الاسماء ؛ ولها ابنية كثيرة ستبين ان شاء الله »(٢٠) .

ويبدو من هذا النص ان مفهوم سيبويه للفعل يقوم على ثلاثة اشياء :

١ ــ الصيغة .
٢ ــ الاشتقاق .
٣ ــ الدلالة .

وقد ذكرناها منفصلة للتوضيح ، وهي في الواقع متواشجة يصعب الفصل بينها ، ذلك ان تشكل الافعال المشتقة في صيغ خاصة هو الذي يحدد دلالتها . فالصيغة (فعل) تدل على الماضي ، والصيغتان (يفعل وافعل) تدلان على الحاضر والمستقبل ، وهذا المفهوم ــ كما هو واضح ــ مبني على طبيعة اللغة العربية ، واستقراء نصوصها والتمرس بها ، وليس فيه مايدنيه من مفهوم ارسطو من قريب او بعيد .

وظل مفهوم الفعل على هذه الصورة في القرون التي تعاقبت بعد سيبويه ، لم يضف اليها شيء ذو بال ، فبعض النحويين ذكر ان الفعل يدل على حدث مقترن بزمان محصل ، فاضاف كلمة (محصل) ليميز الفعل من المصدر ، ويريد بها ان صيغة الفعل هي التي تدل على الزمان . وذكر آخر انه ما اسند الى غيره ولم يسند غيره اليه(٢١) .

ج ــ مفهوم الحرف بين ارسطو وسيبويه :

ولننتقل الى ما زعمه مركس والدكتور مذكور من ان مفهوم سيبويه للحرف متأثر بكلام ارسطو للرباط او الاداة . فماذا قال كل منهما ؟

جاء في كتاب الشعر :(٢٢) « والرباط لفظ غير دال ، ولا يمنع ولا يسبب الصوت الواحد المركب من اصوات كثيرة ، ويوضع في الطرفين او في الوسط ، او صوت غير دال يمكن ان يركب من اصوات كثيرة كل منها دال صوتا واحدا دالا . او صوت غير دال يشير الى ابتداء جملة او انتهائها او تفصيلها ، ولا يصح ان يستقل بنفسه في اول الجملة » .

ففي هذا النص ثلاثة انواع من الحروف ، تستعمل في اللغة اليونانية ؛ وهي جميعها تشترك في سمة واحدة ، هي انها ليست بذات معنى ، وقد بدأ ارسطو حديثه عن كل منها بقوله : « صوت غير دال » .

اما سيبويه فقد وصف الحرف بانه « ما جاء لمعنى » ؛ قال : « وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل » . ، وقال بعد هذا : « واما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل فنحو : ثم ؛ وسوف ، وواو القسم ، ولام الاضافة ، ونحوها . »(٢٣) وفي مواضع

(٢٠) الكتاب (هارون) ١٢/١ .

(٢١) انظر : الايضاح في علل النحو ٥٢ ، والصاحبي ٥٢ . واسرار العربية ١١ .
(٢٢) ترجمة الدكتور شكري عياد . ص : ١٢ .
(٢٣) الكتاب (هارون) ١٢/١ .

كثيرة من كتابه يسمي الحرف بمعناه ، كأن يقول : حرف النداء ، او حرف النفي ، او حرف الاستفهام ، او ...

وقد زعم المستشرق مركس ـ على الرغم من هذا ـ ان سيبويه ينفي ان يكون للحرف معنى في كلام العرب ، ولعله فهم من كلام النحاة عامة وسيبويه خاصة غير ما ارادوه ؛ فهم يذهبون الى ان معنى الحرف لا يظهر الا في التركيب ، اي ان معناه ـ بحسب مصطلح علم اللغة الحديث ـ وظيفي لا معجمي ، وهذا يعني انه ذو دلالة عند سيبويه ، وليس مجرد رباط .

واما ما زعمه الدكتور مذكور من ان الكوفيين استعملوا المصطلح (اداة) اليوناني لانهم « شاؤوا ان يحتفظوا بالمصطلحات المنطقية احتفاظا تاما » فلا يمكن ان يعد من قبيل البحث عن الحقيقة ، بل هو ضرب من ضروب الظن والتعجل في الحكم ؛ لان تحقيق مثل هذا الزعم لا يكون الا بالعودة الى الترجمة التي سبقت القرن الثاني للهجرة الذي اظل الفراء ، لانه استعمل لفظ اداة غير مرة في كتابه (معاني القرآن) ؛ وهذا من الصعوبة بمكان ، لان اول من نقل شيئا من المنطق الى اللغة العربية هو محمد بن عبدالله بن المقفع ـ على اصح الاقوال ـ اي كان النقل الاول معاصرا للفراء ؛ والفراء رجل لغوي ذو حظ غير وافر من الاعتزال ، فهل يمكن ان يكون ممن اطلعوا على الترجمة العربية منذ بداياتها ؟ هنا صدقنا ذلك ، وصدقنا ان الترجمة كانت بحيث يفهمها رجل كالفراء . ولكن من يستطيع ان يعرف الكلمة العربية التي استخدمها المترجم ، ارباط هي ام اداة ؟ لان المتاخرين لم يتفقوا على كلمة واحدة ، فقد ترجمها متى بن يونس بـ « رباط »(٢٤) ، وترجمها الفارابي بـ «اداة»(٢٥) اليس من المحتمل ان تكون الكلمة الاولى اسبق بدليل ترجمة متى بن يونس ، ثم نقلها الفارابي فيما بعد الى (اداة) مستفيدا من مصطلحات النحاة العرب ؟ واذا كان الامر بمثل هذا التعقيد ، والبعد عن التحقيق افلا يكون اطلاق الحكم على هذه الصورة الجازمة مما يشوه الحقائق العلمية .

د ـ دليل مادي :

ومن حسن الحظ انه وصل الينا شيء من تراث اليونان النحوي في آثار الفلاسفة المسلمين ؛ كثير منه نجده في كتاب الفارابي (الالفاظ المستعملة في المنطق) ونجد بعضه في كتابي ابن سينا : الشفاء ، والنجاة ، وحين نعود اليها نجد الاختلاف بين النحو العربي والنحو اليوناني ذا شقين :

الاول : اختلاف في طريقة الاستخدام بين اللغتين : العربية واليونانية .

والثاني : اختلاف في منهاج الدرس والتصنيف .

فالحرف مثلا في اللغة اليونانية ليس دائما لفظا واحدا يتميز من الاسم والفعل في بنيته الشكلية كما هي الحال في العربية ، والفعل ـ كما رأينا من قبل ـ نوعان : فعل كون مساعد يربط بين الموضوع والمحمول ، وغير مساعد يخبر به عن الجوهر مباشرة .

اما في المنهج فقد سلك اليونان في تصنيف الكلمات منهجا وظيفيا ؛ اما العرب فقد سلكوا منهجا تتآزر فيه الشكلية والوظيفية والدلالية . ومن هنا صار ما يعده اليونان حرفا مختلفا عند العرب في الاسماء ، وهذا واضح جدا في قول الفارابي : « ان الالفاظ الدالة منها ما هو اسم ، ومنها ما هو كلمة ، والكلمة هي التي يسميها اهل العلم باللسان العربي الافعال ، ومنها ما هو مركب من الاسماء والافعال » . وقال ايضا : « غير ان العادة لم تجر من اصحا بعلم النحو العربي الى زماننا هذا بان يفرد لكل صنف منها اسم يخصه ، فينبغي ان نستعمل في تعددها اصناف الاسامي التي تأدت الينا من اهل العلم بالنحو من اهل اللسان اليوناني ، فانهم افردوا كل صنف منها باسم خاص » .

ثم ذكر من اصناف الحروف ما هي اسماء في النحو العربي :

١ ـ كالضمائر التي سماها الخوالف .

٢ ـ والاسماء الموصولة التي سماها الواصلات .

٣ ـ والحواشي ، وعد فيها : ليس ، وليت شعري ، وشبيه ان يكون .

٤ ـ وذكر في جملة الحروف الاسمين المربيين : كل ، وبعض(٢٦) .

* * *

(٢٤) انظر : كتاب الشعر : ١٢ .
(٢٥) انظر : شرح كتاب العبارة : ٤٨ .
(٢٦) انظر : الالفاظ المستعملة في المنطق : ٤١ ـ ٤٦ .

واذن ، فان النظرة اليونانية الى اجزاء الكلام تختلف عن النظرة العربية ؛ اما التقاء اللغتين في احتواء العناصر الثلاثة فلا دليل فيه ؛ لان اللغات جميعا تحتويها ؛ ولابد منها في تكامل الاداء .

وعلة ذلك ترجع الى ان نشأة اللغة الانسانية ونموها مرتبطان بوعي الانسان للاشياء من حوله ، وهذا الوعي يحث على التسمية ؛ ثم ان استعمال هذه الاشياء يشكل حدثا يعيه الانسان ويعبر عنه بكلمة سميت فيما بعد بالفعل ؛ وبهذا ظهر الاسم والفعل قبل ان يظهر الحرف ، لانهما يرتبطان بالمحيط المادي واحداثه ؛ اما الحرف فلا يسمي المادة ، ولا يعبر عن احداثها ، بل يربط بين معنى الاسم ومعنى الفعل في التركيب ، فلا يظهر الا في مرحلة الصياغة او الاسلوب .

وعلى هذا يكون الاسم والفعل كالابجدية الاولى في حياة اللغات الانسانية ، ويكون الحرف من مستحدثات المرحلة الاسلوبية او التركيبية في حياتها ، ومن اجل ذلك تلتقي اللغات العالمية في هذه الاقسام الثلاثة ، وقد اهتدى علماء كل منها الى تمييزها بعضها من بعض باسلوب يختلف بين لغة واخرى .

ومن هنا يكون ما ذكره الدكتور جواد علي من ان من المحتمل ان يكون علي وابو الاسود قد وقفا على تقسيم الكلام في لغة امة غير العربية لا يدل على شيء البتة ، اذ ليس المهم ان يطلعا على مثل ذلك ، بل المهم ان يكون لهما منهج لغوي يميزان به اجزاء الكلام بعضها من بعض ، وهذا غير ميسر لهما في ذلك الزمن ، ولا تدل عليه الوقائع التاريخية وما يتسب اليهما من انهما اهتديا الى هذا التقسيم لا يعدو ان يكون خبرا شعبيا لا يحمل حقيقة علمية .

اضف الى ذلك ان كتب الطبقات القديمة قبل القرن الثالث للهجرة لا تشير الى شيء من هذا(٢٧) ، بل تذكر ان ابا الاسود وضع ابوابا في النحو ليس غير ، هي باب الفاعل والمفعول والمضاف اليه والمنصوب بالحرف ، ويذكر بعضها الاخر انه وضع باب التعجب . ولو ان ابا الاسود وعليا قسما الكلام الى اسم وفعل وحرف لكان النحو قد ولد منذ وضعه منظما مبوبا ذا خليقة كاملة ، ويغلب على الظن ان اول من اهتدى الى هذا التقسيم وذكره في مجالسه هو ابن ابي اسحاق الحضرمي ، وان اول من دونها في كتاب هو تلميذه عيسى بن عمر صاحب كتابي الجامع والاكمال .

ان علم اللغة من العلوم التأملية ـ بحسب تصنيف ابن خلدون للعلوم ـ وهي العلوم التي لا تعتمد النقل والاثر كالعلوم الدينية ، ولذلك يهتدي فيها الانسان بفكره ، الى مسائلها وموضوعاتها ، وينفذ الى براهينها من دون اعتماد على نقل او سنة ، وتتميز هذه العلوم بانها مشتركة بين الامم ، وذلك يعني ان الاستقراء اللغوي عند العرب وعند غيرهم من الامم وصل الى بنية اللغة ، وحللها الى اجزائها ، فتشابهت العناصر العامة ، ولكن اختلفت النظرة بين امة واخرى . فما سماه العرب اسما قد يكون حرفا عند اليونان او غيرهم ، وبهذا لا يدل التشابه العام في التقسيم على اقتباس امة من اخرى .

وهكذا يخيل اليك وانت تستعرض آراء هؤلاء القائلين بالتاثر انهم لم يقفوا على شيء مما في كتاب سيبويه ، ولم يعرفوا اسلوبه في استقراء النصوص العربية ، وتوثيقها ، وتتبع الظواهر العامة فيها ، ولم يقفوا ايضا على احاطته بالمستويات اللغوية التي تظهر جلية في كتابه . فهذه لغة قبيحة ، وتلك عالية ، وهذه ضرورة شعرية ، وتلك شاذة ، هذه قليلة وتلك كثيرة شائعة ، الخ ... وهي تدل دلالة جازمة على انه استقرى النصوص ، ووعى النظم ، وصدر عن معطيات اللغة العربية دون سواها ، بل ان كثيرا من هؤلاء الباحثين لم يقفوا ايضا على دراسة ارسطو للغة ، ولم يعرفوا رأيه في الاسم والفعل والرباط ، ولم يتبين لهم كم قسما قسم الكلام ، فظنوا انه جعله ثلاثة اقسام ، وهو عنده ـ كما رأيت ـ سبعة .

وهذا يدلك على ان هؤلاء الرهط من الباحثين لم يكن لديهم منهج علمي فيما ذهبوا اليه ، بل قامت دراستهم على الظن والاحتمال ، وقامت عند بعضهم على التبعية والارتجال .

(٢٧) كتاب : طبقات ابن سلام ، ومراتب النحويين ، وطبقات الزبيدي ، وفهرست ابن النديم .